الإنجليز بين التذلل والتدلل

فى يوم 30 يوليه سنة 1951 ألقى مستر موريسون وزير خارجية بريطانيا آنذاك فى مجلس العموم خطابًا خطيرًا جاء فيه ما نصه «فلم يعد وجود القوات البريطانية فى مصر اليوم مسألة لا تعنى غير بريطانيا ومصر وحدهما. فنحن دولة تحمل بالنيابة عن بقية دول الكومنولث وحلفاء الغرب مسئوليات كبيرة فى الشرق الأوسط، ومصر هى مفتاح الشرق الأوسط من بعض الوجوه.

وانتهى الوزير الخطير إلي أنَّ مصير البلدين (مصر وبريطانيا) مرتبط كلاهما بالآخر وأنه لابد من مشاركتهما معًا فى الدفاع عن هذه المنطقة من الشرق الأوسط.

هاجت الخواطر وماجت فى مصر وتقدمت باعتبارى عضوًا بمجلس الشيوخ اطلب بيانًا من وزير خارجيتنا وقلت فى طلبى إنَّ الذى أدلى به الوزير الإنجليزى معناه إقفال لباب المحادثات.

وبجلسة 6 أغسطس أدلى سعادة صلاح الدين باشا فى المجلسين ببيان رائع بسط فيه الموقف من جميع نواحيه وصارح البلاد بالحقيقة كاملة وانتهى إلى أنَّ وزير خارجية بريطانيا قد أغلق بتصريحاته الأخيرة فى مجلس العموم باب المحادثات التى كانت تجرى بين الحكومتين كما وعد البرلمان بأن تعرض عليه الوزارة قبل فض الدورة الخطوات التالية بعد أن تنتهى منها اللجنة السياسية الوزارية ومجلس الوزراء.

فلما رأى الإنجليز هذا الموقف من وزير خارجيتنا السابق انزعجوا وتبيَّن ذلك

من الرجوع إلى الكتاب الأخضر (صفحة 214 وما بعدها) يجد المطلع أنَّ سعادة السفير البريطانى بعث بمذكرة إلى رفعة النحاس باشا جاء فيه «يود السفير البريطانى معرفة ما إذا كانت نية الحكومة المصرية حقيقة أن تعلن فى البرلمان المصرى أنَّ المحادثات بين وزير الخارجية والسفير البريطانى قد فشلت وأنه لا فائدة البتة من الاستمرار فيها، كما أشار إلى ذلك صلاح الدين باشا فى أثناء حديثه الآخر مع السفير البريطانى».

«ويود السفير البريطانى فى هذا الصدد استرعاء انتباه حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا إلى الاتهام الذى أدلى بها وزير الخارجية فى البرلمان المصرى فى 6 أغسطس من أنَّ خطاب مستر موريسون فى مجلس العموم يوم 30 يولية قد أغلق كل سبيل للمحادثات بين الحكومتين وهذا لا يطابق الواقع.

وفى اليوم التالى بعث سعادة السفير بمستخرج رسمى من خطاب المستر موريسون وأرفقه بكتاب جاء فيه «وسترون أنَّ ما قاله مستر موريسون لا يعنى مطلقًا إغلاق باب المحادثات الجارية».

ألم يكن هذا تذللًا واضحًا من جانب الإنجليز؟ إنَّه كان تذللًا بكل ما فى الكلمة من معنى.

ولم يكتف سعادة السفير بهذا، بل إنَّه بعث فى 17 أغسطس بكتابين أحدهما لرفعة النحاس باشا والآخر لسعادة صلاح الدين باشا وأرفق كل كتاب «برسالة شخصية» من مستر موريسون.

وفى الرسالة الأولى يقول المستر موريسون: «إننى قلق» من أن يقال أو يحدث أثناء غيابى (كان مزمعًا السفر فى عطلة قصيرة) شىء قد يؤدى إلى إغلاق الباب إغلاقًا تامًا دون استئناف المحادثات بين حكومتينا. وليس فى نيتى أو نية حكومة جلالة الملك أن نقول أو نفعل أى شىء من شأنه أن يجعل استئناف المحادثات مستحيلًا بل على العكس.

وفى الرسالة الثانية قال موجهًا كلامه إلى سعادة صلاح الدين باشا: «أقلقنى كثيرًا ما علمته من خطابكم الذى ألقيتموه فى مجلس النواب يوم 6 أغسطس من أنكم فهمتم أنَّ بيانى أغلق باب المحادثات الجارية بين حكومتينا، وقد كان هذا بعيدًا جدًا عما قصدته....».

وأود أن أؤكد لكم أنه لا يزال لدىَّ أصدق الرغبة فى الوصول إلى تسوية لمشاكلنا المشتركة تحقق المطالب الجوهرية للطرفين.

أفليست هذه أمثلة تساق للتدليل على أنَّ الإنجليز كانوا يتذللون.

إنَّ حكومة مصر كانت واضحة فى طلباتها صريحة فى تحديدها للإنجليز فلما رأت أنهم يماطلون ويدورون حول أغراضٍ لا تتفق وأهداف مصر القومية وتبين لها هذا بجلاء من خطاب المستر موريسون أعلنت أنَّ الباب قد أغلق. وها هو ما حدث بعد يوم 6 أغسطس يدل على مبلغ تهافت الإنجليز تهافتًا عجيبًا.. فمن مذكرات إلي رسائل شخصية تنطق بالقلق وتحمل الرجاء والإلحاح فى ترك الباب مفتوحًا.

أما اليوم فقد تغيَّرت الحال غير الحال وأصبح المتذلل بالأمس متدللًا اليوم.

والسر فى ذلك لم يعد خافيًا على أحد ولا هو بالأمر الذى يصعب فهمه، فهو أوضح من أن يحتاج إلى شرحٍ أو بيانٍ.

السر أنَّ مصر بعد المماطلة والتسويف انتهت فى 8 أكتوبر الماضى إلى إلغاء المعاهدة واتفاقيتى الحكم الثنائى وأعلنت أنَّ ملكها المعظم أصبح ملكًا لمصر والسودان فبهت الإنجليز لهذا التصرف الجرىء وأعلنوا أنهم من جانبهم متمسكون بالمعاهدة ولكن هذا لم يمنعهم من السعى هنا وهناك ليعودوا بنا إلى المفاوضة.

السر أنَّ مصر بعد أن ألغيت المعاهدة سارت شوطًا بعيدًا فى خطة عدم التعاون حتى ضاق على الإنجليز الخناق فى منطقة القنال فتورطوا فى ارتكاب ما ارتكبوه

مما أثار عليهم ثائرة فريق من نوابهم فى مجلس العموم احتجاجًا على تصرفاتهم.

وفى وسط هذه الأزمة التى استحكمت حلقاتها دعا وزير خارجية بريطانيا وزير خارجيتنا لتناول الشاى معه فى باريس، وطبيعى أنَّ هذه الدعوة لم تكن للكلام عن جو باريس.

وأخيرًا يئس الإنجليز يأسًا تامًا. ثم وقعت حوادث يوم 26 يناير التى أصابتنا فى الصميم فأفادوا منها إذا ذهبت الجهود التى بذلك فى الشهور ما بين أكتوبر عام 1951 ويناير سنة 1952 هباء.

والآن وقد هدأ منهم البال واطمأن الخاطر فزالت المخاوف وزالت أسباب القلق عادوا يتنمرون وأصبحوا يتدللون بعد أن كانوا بالأمس يتذللون.

إنَّ سياسة حكومة الوفد كانت واضحة جلية، فهى كانت ترمى إلى إجبار الإنجليز على قبول مبدأ الجلاء ووحدة الوادى تحت التاج المصرى أولًا وقبل كل شىء، وخصوم الوفد كانوا يخلقون للحكومة المتاعب فى كل ناحية، فكم تحدثوا عن الغلاء والجوع والفقر وهم الآن قد خرسوا فلم يعودوا يتحدثون عن شىء من ذلك كأنما الغلاء والجوع قد زالا وتساوى الفقراء بالأغنياء.

وكانوا يتحدثون عن الرشوة واستغلال النفوذ والفساد ويلقون التهم جزافًا والبلاد تكافح الإنجليز وجهًا لوجه فى منطقة القنال. وكانت أقل مراتب الوطنية تقتضيهم حتى لو كانوا على حق فى اتهاماتهم أن يقدموا الأهم على المهم.

ألا فليعلم الكل أنَّ مصر باقية لا تموت وأنها لبالغة أهدافها القومية فى وقت أقرب مما يتصور المستعمرون وأذناب المستعمرون.

وسنرى ويرون.